من التاريخ الإسلامي :

رجل وامرأة . . .

للأستاذ علي الطنطاوي

[يقولون : إن التاريخ يعيد نفسه وربما كان صحيحاً هذا الذي يقولونه]

« ع »

كان ذلك في يوم من أيام سنة ٦٠٧ هـ وكانت دمشق تصارع دهرها المتناثم الحرون ، الذي رمى بلاد الشام بقاصمة الأصلاب : الصليبيين ، فنزلوا على مدنه نزول البلاء ، وفشت أجنادهم في نابلس وعكا وبلاد أخر فشوّ الطاعون ، وكان صبرها يزيد كلما زاد الكرب ، وحزمها ينمو كلما نمت المصيبة ، شأن دمشق في كل عصر . وكأن طوفان النيرين يمتد ويتسع ، يحمل الموت والدمار ، يأتي على البلاد والعباد ، يجتث الحضارة من أصولها ، وأهل الشام ينهضون له فلا يملكون له دفعاً ، حتى كادت الديار تخلو من شبابها ، ولا يبقى فيها إلا شيخ أو امرأة أو صبي — أو قعدى نسيَ واجب الجهاد !

— وقد ذهب فيمن ذهب إخوة (ميسون) الأربعة ، وبقيت من بعدهم وحيدة في دارها لا يؤنسها إلا شبابها وجمالها وذكرى إخوتها —

* * *

أصبحت ميسون مهمومة ، قد تقاسم فكرها العزيزان : وطنها وإخوتها ، فما تدري ماذا جرى لهم ، وماذا يجري عليه ، ولقد سمعت طرفاً من أحاديث المارة ، فعلمت أنه قد اشتد الخطر ، ودنا الهلاك ، وأن هؤلاء (الواغلين ...) لا يفتأون يركبون جناح الليل الأسود ، إلى شاطىء فلسطين ، تحملهم المواخر الهاربة من عين الرقيب ، المتسللة من وراء الحرس ، فكلما دجا الظلام نزلوا إلى الشط أفواجاً فكانوا للغاصبين عوناً ، وعلى أهل البلاد حرباً ، وجعلت تفكر في هذه العصبة المجاهدة الكريمة ، ماذا تستطيع أن تصنع لها ؟ وكيف توقد النار في أعصاب هؤلاء الذين لا يزالون يروحون ويغدون على متاجرهم وأعمالهم ، ويأخذون حظوظهم من مفاتن الطبيعة وجمال الكون ، وتنسيهم ملذات

« القرآن » إنما قلت : سر الإعجاز في « تعبير » القرآن . وفرق كبير مابين العبارتين . فالإعجاز في القرآن شائع ، وشامل لتعبيره ومنحاه وقضاياه ... الخ

غير أن العجيب في الأمر أن الأستاذ عبد المنعم الذي يريد أن يعهد إلى الذهن البشري بقضية العقيدة كلها ، لا يأتمن هذا الذهن على إدراك سر من أسرار الإعجاز في تعبير القرآن !

* * *

وكلمة أخرى تتصل بالجدل وإن تكن ليست منه :

لقد شكا الأستاذ عبد المنعم من عبارات جاءت من غير قصد في ردودي ، فأحب ألا يكون في نفسه منها أثر ، ليظل هذا الجدل العلمي القيد بعيداً عن جميع المؤثرات

ويدوري أشكو إليه كلمة ظالمة قالها عن كتابي ، تاركا ما عداها مما لو رحت أعده عليه ، لأربى على مواضع عتبه :

هذه الكلمة الظالمة هي أن يقرن بين بعض عملي في « التصوير الفني في القرآن » ، وبعض عمل المرحوم الأستاذ « الرافعي » في « إعجاز القرآن » ، وإنه ليعلم ، وقراء الكتابين يعلمون أنه ما من نقطة ارتكاز واحدة بين المنهجين والطريقتين . بل لقد قرر بعض النقاد المنصفين أن طريقتي في عرض الجمال الفني في القرآن غير مسبوقة في كل ما كتب عن هذا الموضوع الخالد على الزمان

وكل ناقد منصف عليه أن يسجل أولا هذه الحقيقة . ثم ليكن له رأيه في نقد هذه الطريقة وعيبها كما يريد ؛ فهي قابلة للنقد والعيب ككل عمل إنساني في الوجود .

وعلى أية حال فللأستاذ عبد المنعم شكري الخالص ، وإليه تنأى الجم الذي أحسب القراء يشاركوني فيه ، لإخلاصه فيما كتب وسلوكه طريق النقد الصحيح .

سيد قطب

أجسامهم ومرابعُ تجاراتهم ، هذا الخطر الذى عم البلاد ، والذى طال الزمان به ، ونشأوا عليه ، فألفوه ونسوا أيام الحرية والمجد ، وأن هذه البلاد بلادهم ، وأنهم سلائل الأبطال الفاتحين ، وحسبوا حكم هؤلاء (الواغلين ...) ضربة لازب ، وأن قضاء الله قد تم فيهم فلا ينفع معه سعى ، وأن أيام السعادة قد انتهت فلا تؤمل لها رجعة ، كيف لها وهى الفتاة المفردة بإيقاظ هذه النفوس التى امتدبها الهجوع حتى كاد يكون موتاً ؟ كيف تفهم هذه الشخوص التى تجىء وتذهب كشخوص من ورق فى ألعوبة (الكراكوز) ، أن الحياة ليست بطناً يملأ ، ولا شهوة تقضى ، ولا مالاً ينال ، ولكن الحياة المجد والتقى ، وجلائل الأعمال ، وأن يعرفوا للوطن حقه ، وأن يعلموا ، ويعلم كل عربى ، وكل مسلم ، أنه ما دام فى فلسطين (واغل ...) واحد من هؤلاء ، فحرام أن ينعم زوج بأهله ، أو غنى بماله ، أو يغلق جفن على لذيذ المنام ؟

وإنها لفى تفكيرها ، وإذا بالباب يخفق ، وإذا هو نعى إخوتها الأربعة ...

* * *

صعقت ميسون لهذا النبأ ، وعجز جسمها اللدن ، وقلبها الرقيق عن حمله ، فتضعضعت وانهارت ، ولكن الإيمان والشباب تنبها فى نفسها ، ونهضا من تحت أنقاض الصبر ، وخلال غبار المصيبة ، يوقظان اللبوءة للانتقام . لقد كان وتراً واحداً فصارا وترين ، وكانت تطلب ثأر وطنها فلتطلب ثأر وطنها وإخوتها ، ووضعا البارود فى أعصابها كما يوضع فى المدافع ، ثم أرسلاها فى هذا الشعب الهاجع ، تقرع أذنه بالرعود فيفيق أو ينام إلى الأبد ...

وأحست ميسون أن فى عضلاتها القوة التى تهز دمشق هزاً ، وفى حنجرتها الصوت الذى يسمع الأموات ، وفى قلبها العزم الذى لا يكل ، والمدد الذى لا ينقطع ، والأيد الذى يفل الجيوش ، ويدك الحصون ؛ وكذلك الإيمان إن نزل بقلب امرأة جعل منها بطلا لا يغلب ، وما أعجب ما يصنع الإيمان !

* * *

وهمت ميسون أن ترتدى ثيابها ثم تطلب ميدان العمل ، وتلفتت حولها فلم تجد لها فى الأرض قريباً ، ولا ذا رحم ، فقطعت أسبابها من الأرض ثم وصلتها بالسماء ، فشعرت كأنها مؤيدة بقوة إلهية ، اصطفتها من دون الناس ، لتعلم ، وهى الفتاة الغريرة الناعمة ، لتعلم هؤلاء الرجال ، الرجولة كيف تكون !

ولم تعلم من أين تبدأ العمل ، وجعلت تفكر ، وهى تمر يدها على شعرها المنسدل حولها ، المتموج كالحرير يفتن العباد لو أرادت به الفتنة ويأسر قلوب الفرسان ، فسطعت لها الفكرة كما يسطع البرق خلال الظلام ، إن هذا هو سلاحها ، لتشدن الرجال بهذا الشعر الناعم ، ثم لتقودنهم من أعنافهم إلى المعمعة الحمراء ، لتجعلن من ضعفه قوى تأكل القوى .

وذهبت فنادت جارات لها كن يقتدين بها ، ويسمعن منها ، فذكرت لهن مصابها فى إخوتها ، فحسبنها قد دعتهن ليواسينها ويخففن عنها ، ولكنها مضت فى حديثها مُصْعِدَةً ، حتى سمت إلى فلك التضحية ونسيان النفس ورفعتهن معها ، حتى إذا استوثقت منهن ، قالت : إننا لم نخلق رجالا نحمل السيوف ، ونقود الخيس ، ولكنا إذا جبن الرجال لم نعجز عن عمل ، وهذا شعرى أثمن ما أملك أنزل عنه ، أجعله قيداً لفرس تقاتل فى سبيل الله ، لعلى أحرك هؤلاء الأموات .

وأخذت المقص فجزت شعرها وصنع الفتيات صنعها ، ثم جلسن يضفرنه ليوم الكريهة ، لجماً وقيوداً لخيل المعركة العابسة ، لا يضفرنه ليوم الزفاف ، ولا لليلة العرس .

* * *

أرسلن هذه القيود واللجم ، إلى خطيب (الجامع الأموى) سبط ابن الجوزى العظيم ، فحمله إلى الجامع يوم الجمعة وقعد فى المقصورة وقد زلزلته الحماسة فما يستقر ، ونفد منه الصبر فما يدرى أيان يصعد المنبر ، فما آن الأوان حتى أسرع بالصعود وجلس وهذه اللجم وهذه القيود بين يديه ، والدمع يترقرق فى عينيه ، ووجهه ممتقع شاحب ، والناس يلحظون ذلك كله ، وينظر بعضهم فى وجوه بعض ، فلما انتهى الأذان قام فتكلم ...

خطب خطبة حروفها من نار تلذع أكباد من يسمعها ، وكلماتها سحر لم يدر هو مأتاه لأن قلبه كان يتلقاه من عالم مجهول ، فيقذف به على لسانه ، ولم يستطع أحد أن يرويها لأنها خطاب من الروح إلى الروح ، قد ذابت كلماتها فى معانيها ، ثم استحالت

معانيها إلى إيمان وتضحية وبذل ، فكانت إحدى هذه المعجزات البلاغية التي يهدر بها كل عصر مرة ، لسان محدَّث ، أو يحشى بها قلم مُلْهَم ، كرامةً من الكرامات ، وواحدةً من خوارق العادات ، يجعل الله بها الكلمات أحياء عظيمة لها روح تجذب الأرواح ، ويد تشدّ الأعصاب ، وعيون تبصّر العيون ... وإنما حفظوا منها جملاً ، نقلوها إلى لسان الأرض ، فجاءت كتمثال الحسناء ، جميل ولكنه من الشمع ... وكان مما حفظوا :

* * *

«يا من أمرهم دينهم بالجهاد حتى يفتحوا العالم ، ويهدوا البشر إلى دينهم ، فقعدوا حتى فتح العدو بلادهم وفتنهم عن دينهم ! يا من حكم أجدادهم بالحق أقطار الأرض ، وحُكموا هم بالباطل في ديارهم وأوطانهم !

يا من باع أجدادهم نفوسهم من الله بأن لهم الجنة ، وباعوا هم الجنة بأطماع نفوس صغيرة ، ولقائذ حياة ذليلة !

يا أيها الناس :

ما لكم نسيتم دينكم ، وتركتم عزّتكم ، وقعدتم عن نصر الله فلم ينصركم ، وحسبتم أن العزة للشرك وقد جعل الله العزة لله ولرسوله وللمؤمنين يا ويحكم أما يؤلمكم ويشجي نفوسكم ؟ مرأى عدوّ الله وعدوكم ، يخطر على أرضكم التي سقاها بالدماء آباؤكم ، يذلكم ويتعبدكم وأنتم كنتم سادة الدنيا ؟

أما يهز قلوبكم ، ويُنمي حماستكم ، أن إخواناً لكم قد أحاط بهم العدو ، وساموهم ألوان الخسف ؟! أما في البلد عربي ؟ أما في البلد مسلم ؟ أما في البلد إنسان ؟ العربي ينصر العربي ! والمسلم يعين المسلم ! والإنسان يرحم الإنسان ! فمن لم يهب لنصرة فلسطين ، لا يكون عربياً ولا مسلماً ولا إنساناً !

* * *

أفتأكلون وتشربون وتنعمون وإخوانكم هناك يتسربلون باللهب ، ويخوضون النار ، وينامون على الجمر ؟

يا أيها الناس ، إنها قد دارت رحى الحرب ، ونادى منادي الجهاد ، وتفتحت أبواب السماء ، فإن لم تكونوا من فرسان الحرب ، فافسحوا الطريق للنساء يدرن رحاها ، واذهبوا فخذوا المجامر والمكاحل ! يا نساء بمآتم ولحى ! أوّ لا ... فإلى الخيول . وها كم لجمها وقيودها ...

يا ناس . أتدرون مم صنعت هذه اللجم والقيود ؟

لقد صنعها النساء من شعورهن لأنهن لا يملكن شيئاً غيرها ، يساعدن به فلسطين ...

هذه والله ضفائر المخدرات التي لم تكن تبصرها عين الشمس صيانةً وحفظاً ، قطعنها لأن تاريخ الحب قد انتهى وابتدأ تاريخ الحرب المقدسة ، الحرب في سبيل الله ، وفي سبيل الأرض والعرض ، فإذا لم تقدروا على الخيل تقيدونها بها فخذوها فاجعلوها ذوائب لكم وضفائر ... إنها من شعور النساء ، ألم يبق في نفوسكم شعور !

وألقاها من فوق المنبر على رؤوس الناس ، وصرخ :

« تصدعي يا قبة النسر ، وميدي يا عَمَد المسجد ، وانقضّي يا رجوم ، لقد أضاع الرجال رجولتهم ... »

فصاح الناس صيحة ما سمع مثلها ، ووثبوا يطلبون الموت !

* * *

بلغت الحياة هذه القلوب فعاشت بحمية الإيمان ، وحماسة الشرف ، وعاش فيها إرث الجدود ، فهبت دمشق بجيش يلتحق رجالها في طريق الجهاد ، وتوالت الأمداد على الملك المعظم في نابلس ، ونابلس دائماً مطلع شمس النصر ، ونابلس دمشق فلسطين ، وكانت هجمة الأسود على الأعداء (الواغلين ...) فطردوهم حتى التجأوا إلى عكا ، فحاصروهم فيها حتى أشرفوا على الهلاك ، فاستسلموا ...

وكذلك جاء النصر على يدي رجل وامرأة ، أما الرجل فقد أكرمه الله فجعله أحد العظماء الخالدين ، وأما المرأة فقد كافأها فردّ عليها إخوتها الأربعة سالمين مظفرين ، لم يصبهم سوء ...

وعلمت الدنيا أن أتباع محمد ، لا يذلون ولا يستعبدون ، ما بقي فيهم رجل واحد ، أو امرأة مفردة ، طوت صدرها على إيمان صحيح ، وأنهم قد ينامون ولكنهم لا يموتون ، وأن (الواغلين ...) عليهم ، في فلسطين وغير فلسطين قد يقيمون حيناً ولكنهم لا يستقرون ولا يملكون !

علي الطنطاوي